أحمد محمد النزال الشديفات

أُمْنِيَّة

عظيم الروم "هرقل" غاسل قدمي رسول الإسلام

دار السمة للنشر الإلكتروني

أُمْنِيَّـــة

عظيم الروم "هرقل"
غاسل قدمي رسول الإسلام

اسم الكتاب: أمنية عظيم الروم "هرقل" غاسل قدمي رسول الإسلام

اسم الكاتب: د. أحمد محمد النزال الشديفات

نـوع العمـل: سيرة نبوية

عدد الصفحات: 72

الرقم الدولي EBIN: 16-158-01-211109

الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني

الطبعة الأولى: 2021م / 1443هـ

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934

دار بسمة للنشر الإلكتروني (المغرب)

basma24design@gmail.com

المملكة المغربية

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمّل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. كما لا يجوز بأيّ صورة نشر أو إعادة طبع أي جزء من هَذَا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله عَلَى أي نحو كَانَ، أو بأيّ طريقة سواء كَانَت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من الناشر. ©

أُمْنِيَّة

عظيم الروم "هرقل" غاسل قدمي رسول الإسلام

سيرة نبوية

الدكتور القاضي

أحمد محمد شديفات

دار البشير للنشر الإلكتروني

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى أرباب البيان والعقل والفكر والعدالة، الساعين إلى الحقيقة، أهديهم أقوى مناظرةٍ ومحاورةٍ بين عظيمين من عظماء التاريخ: هرقل وأبي سفيان، فالرجلان لا صلة لهما بالإسلام، ولا يؤمنان به في حينه، ومع هذا قالا الحقيقة ونطقا بها، وأنصفا دين الإسلام ورسوله، وبهذا وضعا أُسُساً للباحث عن الحقيقة بكل تجرُّد وحِيادٍ، حتى أنك تلمس ذلك من خلال قراءة ذلك البيان، فأحدهما يسأل، والآخر يجيب بكل دقَّةٍ ومعرفةٍ، وبمختصَر صدق الكلام، على نحوٍ لم يترك لأحدٍ عليه مَلاما.

المقدِّمة

ليس من السهل أن تقدِّم لفكر رجلَين: عظيم الروم (هرقل)، وشريفٍ وسيِّدٍ من سادة العرب: (أبي سفيان)؛ فكلاهما يملك ناصية اللغة والحديث بها، خاصَّة من حيث المحاورةُ والمناظرةُ والتنقُّل في حقولهما ودقائقهما في أمرٍ هامٍّ يخصُّ رسالة سيِّد المرسلين، محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم.

هرقل عظيم الروم كان معروفاً بعلمه وخبرته، ومن أهل الكتاب الراسخين، ورأس الدولة، إلا أنَّه قضَّ مضجعه، وشغل فكره وباله، وأثار حفيظة نفسه؛ ظهورُ نبيٍّ آخر الزمان المعروف لديهم من العرب بالذات!

عندها فكَّر وقد دهَمَهم الأمر، بوصول الرسائل من هذا النبي الكريم، فجاء تفكيره لمعرفة كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ تحيط بهذا الرسول ورسالته، وأقرب الوسائل والوسائط التي ساعدت على ذلك، قربُ الجزيرة العربية آنذاك

منهم، وهي على صلةٍ تجاريةٍ وحدودٍ مشتركةٍ وصِلاتٍ وزياراتٍ، وقبائلها على طول امتداد الدولة الرومانية كالغساسنة والمناذرة.

عندها فكَّر هرقل مَلِيّاً، واستشار أعوانه ورجالاته وقادته، ورجال الدين القساوسة والرهبان... وتدارسوا أمر الدين الجديد، فكان أقرب الطرق لهم التجار العرب، فوقع اختيارهم وقادهم حظُّهم إلى داهيةٍ من دُهاة العرب وساداتهم، فوجد نظيره علماً ودرايةً، فأرسل وراء أبي سفيان، فاستدعاه مع صحبه من التجار الكبار إلى قصره المُنيف في دوحة دمشقَ الفيحاء.

وقد بدأت بينهما أعظم محاورةٍ ومناظرةٍ تاريخيةٍ، بين عظيمين بالبحث والتنقيب وتقصِّي الحقائق، عن: مَن هو محمَّدٌ رسول الله؟!

فقد كان هرقل يوجِّه أسئلته الهامَّة الدقيقة قليلة العبارات، إلى أقرب أقارب الرسول، وكنْه رسالته، من خلال تبادل الحديث مع أبي سفيان، والكلمات المنتقاة، ووجود الحضور من عِلْية القوم من الطرفين.

وكان الطرح جادّاً وواضحاً وهادفاً، وليس تَرَفاً فكريّاً، وكان بين الرجلين إنصافُ دين الإسلام ورسوله، على الرَّغم من عدم إيمانهم به حينئذٍ؛ لمعرفتهم عن الدين الجديد كلَّ صغيرةٍ وكبيرةٍ، يعرفون عنه أكثرَ من

أهله، قال الله تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ...} [الأعراف: 157].

ومن هنا أدعوكم لمتابعة المحاورة بين هرقل وأبي سفيان.

افتتاحيَّةٌ في حياة أبي سفيان

من خلال استعراض حياة الصحابة، تجد أن حياتهم أخذت منحىً غير معهودٍ خلال فترةٍ وجيزةٍ لا تتعدَّى سنواتٍ، فغيَّرت النظرة لهم، من أهل باديةٍ وجاهليَّةٍ وتَشَرْذُمٍ وتفرُّقٍ ونهبٍ وغزوٍ، إلى وَحدةٍ واحدةٍ، وصفٍّ متراصٍّ مبنيٍّ على المودَّة والتآخي والإيثار والتضحية والإيمان، وفكرٍ وقادةٍ وحَمَلة رسالةٍ، وقد هجروا الماضي وما فيه من سوءٍ، وبنَوا بناءً جديداً على أساس عقيدة: لا إله إلا الله محمَّدٌ رسول الله.

ومن خلال البحث قدْرَ الإمكان في حياة أبي سفيان، فهو ذو نسبٍ عريقٍ وشجرةٍ وارِفة الظلال، أصلها ثابتٌ وفرعها في عَنان السماء، وقد ظهر ذلك من صفاتٍ تميَّزت بها هذه العائلة الكريمة، بدايةً من أبي سفيان إلى زوجه هندٍ بنت عتبةَ، إلى أم المؤمنين رَمْلةَ أمِّ حبيبةَ، إلى معاويةَ ...

فهؤلاء قدَّموا مسيرةً في نهج الإسلام بقيت عاليةً على طول الزمان، لا يطاولها أيُّ إنسانٍ إلا من جاء بمثل تلك الصفات والإحسان.

لا نقول إلا: جزى الله أهل الخير، وكلَّ من ضحَّى وكان له قدمٌ راسخةٌ في نشر الإسلام.

بطاقة تعريفٍ بأبي سفيان

الاسم: صخر بن حربٍ، الأمويُّ القرشيُّ الكِنانيُّ.

الكنية: أبو سفيان، اسم علمٍ مذكَّرٌ، معناه: المسرع في مشيه، أو في طيرانه.

اللقب: أبو حنظلةَ.

مواصفاته: من أحد أشراف العرب، وسيِّدٌ من سادة قريشٍ وكِنانةَ، ومن ساداتهم في الجاهليَّة وصدر الإسلام، ثم صحابيٌّ جليلٌ مِقدامٌ.

الولادة مكانها وتاريخها: كانت ولادته في مكة المكرَّمة، قبل موقعة الفيل بعشر سنواتٍ.

مكان الوفاة: المدينة المنوَّرة، دفن في البقيع ثلاثينَ للهجرة، الموافق ستَّ مئةٍ واثنين وخمسين للميلاد.

الحالة الاجتماعية: تزوَّج من الزوجات التاليات:

1) صفيَّة بنت أبي العاص، أولادها: (حنظلة – وأم المؤمنين أم حبيبةَ – وأميمة).

2) زينب بنت نوفلٍ، ولدت له (يزيدَ).

3) عاتكة بنت أبي أزيهرٍ، ولدت له: (محمَّداً – وعنبسة).

4) صفيَّة بنت أبي عمرٍو، أولادها منه: (عمر – وعمرٌو – وصخرة – وهندٌ – وأمينة).

5) أُمامة بنت سفيان، ولدت له: (رملة الصغرى).

6) لبابة بنت أبي العاص، ولدت له: (ميمونة).

7) هند بنت عتبة، ولدت له: (معاوية وعتبة وجويرية وأم الحكم).

أولاده منهنَّ سبعة ذكورٍ وعشر بناتٍ.

شارك في المعارك الإسلاميَّة التالية: (غزوة حنينٍ – وحصار الطائف – واليرموك).

علامةٌ فارقةٌ: فُقئت عيناه، إحداهما في حصار الطائف، والأخرى في معركة اليرموك.

إسلامه: يومَ فتح مكَّةَ المكرَّمةِ.

هذه بعض أهمِّ الأوصاف والبيانات عنه وله، رضي الله عنه.

أبو سفيان في رحلةٍ تجاريَّةٍ في بلاد الشام ومناظرته مع هرقل

الحكمة والبيان دائماً صِنوانٌ، وقليلٌ من اتَّصف بهما من بني الإنسان.

ومن رغب الاستشارة والنصيحة فليختر ذا الحكمة والبيان؛ لأن الله قد مَنَّ بهما على بعض العباد، قال الله تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا} [البقرة: 269].

قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «إنَّ مِنَ البَيان لَسِحراً». أوْ: «إنَّ بَعْضَ البَيانِ سِحْرٌ».

فقد كان من عادة أبي سفيان أن يتردَّد على ديار بلاد الشام بين الحين والآخر؛ فقد عُرِفَ بين قومه من التجار الموثوقين، حتى عُرِفَ بين أهل تلك الديار، وبينما هو يتجوَّل ذهاباً وإياباً في شراء بعض تجاراته وبضاعته مع رجالات قومه، إذا بالمنادي عليهم: أيُّها التجارُ، أيُّها التجارُ العربُ، فالتفت القوم صوبَ المنادي، فقال لهم: إن هرقل

يريدكم حالاً عاجلاً غيرَ آجلٍ. فتهامسوا بينهم، فقد يكون في الأمر مَكيدةٌ أو دَسيسةٌ عليهم، وأمعنوا في التوجُّس والوساوس... وهذا أمرٌ مطاعٌ، لا يستطيع أن يتخلَّف منهم أحدٌ، ومع أن القوم قد تباطأت أقدامهم نحو قصر هرقل، إلا أنَّهم في النهاية قد وصلوا إلى مقصورة القصر، ودخلوها في رهبةٍ وخوفٍ... فماذا سيحصل لهم، أو ماذا يُراد لهم أو بهم؟!

فشخَصت أبصارهم، فإذا هرقل وقادته ورجالات دولته، وأحبارهم ورُهبانهم وقساوِسَتهم جلسوا حافِّين بهرقل من كلِّ جانبٍ، فزادت رهبتهم وخوفهم، فهمس هرقل إلى أحد خاصَّته بكلامٍ سرّاً، والذي ظهر فيما بعدُ أن هذا هو تَرجمان هرقل.

ومن المِنَصَّة وجَّه هذا التَّرجمان الحديث إلى تجار العرب بِلُغتهم قائلاً: أيُّكم أقرب ما يكون لهذا الرجل الذي ظهر في جزيرتكم؟ (سؤالٌ واستفهامٌ).

فأجاب التجار العرب بكلمةٍ وإشارةٍ واحدةٍ بأصابعهم نحو أبي سفيان: هذا أقرب أقاربه... عندها أُمِر أبو سفيان أن يقرب ويجلس مقابل هرقل وجهاً لوجهٍ؛ فهو الذي ستُطرَح عليه الأسئلة، ثم جعل أصحاب أبي سفيان من خلف ظهره يحيطون به كالأُسوار بالمعصم، من باب أن

يكون أقرب لأصحابه لو احتاج لتذكيرٍ أو تصويبٍ... حتى هذا الوقت لا يعرف أبو سفيان ماذا سيصير، ولم كلُّ هذا الترتيب المحكم؟!

وساد صمتٌ مطبِقٌ، فلا حديثَ إلا ما سيحصل من ترتيبٍ ما بين هرقل وتُرجمانه، وتهيئة الساحة من أجل طرح الأسئلة بواسطة التَّرجمان على أبي سفيان، عن رسول الإسلام، من هرقل بالذات فقط، ولا أحد يتكلَّم سواه؛ دلالةً على علمه بالرسالات وسَعة اطِّلاعه...

الآن الصورة اكتملت، وعرف مقصدَها أبو سفيان وصحبه الكرام.

هذا المحاورة والمناظرة التي ستدور بين هرقل عظيم الروم، الذي عنده علم أهل الكتاب، بذكائه ودهائه، ويعرف الصادق من الكاذب، وعنده معلوماتٌ بيّناتٌ سُطِّرت في التوراة والإنجيل، عن هذا النبيِّ الكريم محمَّدٍ عليه الصلاة والتسليم.

سيبحث هذا الأمر الهامَّ مع أبي سفيان من كل الجوانب، فكان الحديث له وحده دون قومه؛ لأهمِّيَّته، على الرَّغم من وجود الرُّهبان والبطارسة، ويقابله رجلٌ من دُهاة العرب وساداتها، فأبو سفيان من سيرته لا يُستهان به، ومعروفٌ...

فما عرف التاريخ ولا سطَّر أفضل بيانٍ بين اثنين، في كلامٍ مختصَرٍ جاء على مفاصل وأركان الإسلام؛ من هذا البيان، مع أنَّهما لا يؤمنان ولا يدينان بدين الإسلام، فقد أنطقهما الله بصدق رسالة سيّد المرسلين.

وبدأت المناظرة دون تأخيرٍ، ولكن بدقَّةٍ متناهيةٍ وتدبيرٍ، وقد أخذ أبو سفيان عهداً على نفسه وبين صحبه؛ أن يكون صادقاً في نقل ما يعرفه عن نبيّ الإسلام، وهذا ما سيذكره ونطَّلع عليه من خلال حديثه.

ففي حديثه الذي تخلَّله البيان نقل أبو سفيان أفضل رسالةٍ بأحسن كلامٍ، إلى ملك الروم هرقل، وتبدأ المحاورة والمناظرة التي سُجِّلت في السنن الصِّحاح، وهذا دليل فضلها وأهمِّيَّتها في الزمان والمكان.

ويبدأ هرقل الحديث بالترتيب والتفصيل والتسلسل المنطقيّ، وهذا من أصول أدب الكلام؛ فهو من دعا أبا سفيان لهذا المكان... يبدأ كلامه عن طريق تَرجمانه، فقال موجِّهاً كلامه للتجار العرب، ولأبي سفيان بالذات، مع أنّ الكلام للكلِّ:

"أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَباً بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ"؟

"يزعم" من هرقل بحقِّ رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام كلمةٌ غير لائقةٍ، لأن الزعم الكذب.

"فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَقُلْتُ: أَنَا أَقْرَبُهُمْ نَسَباً".

إذَنْ النبيُّ وأبو سفيان يلتقيان في النسب، فالنسب شرفٌ وطهارةٌ في النسل، وأصلٌ أصيلٌ في المورّثات السليمة والسلالة الطيّبة.

فقال هرقل: **"أَدْنُوهُ مِنِّي"**؛ قرّبوه منّي، حتى يسمع المناظرة والمحاورة بينهما ويسمع غيرهما، أُدْنُ منّي، قرّب ما دمت أنت الأقرب نسباً.

"وَقَرِّبُوا أَصْحَابَهُ"، ثم قرَّبوا أصحابه وراءه، وهذه لفتةٌ غريبةٌ عجيبةٌ، أن يكونوا شهود بيانٍ على أبي سفيان.

ملاحظةٌ: الترتيب من هرقل؛ لأهمِّيَّة المحاورة والمحاوِر، فكان أبو سفيان في المقدِّمة.

ثم قال هرقل: **"فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ"**، أي: اجعلوا رفاق أبي سفيان خلف ظهره؛ ليشهدوا على كلامه، أو ينبّهوه أو يذكّروه، أو يهاب أن يخرج عن إطار السؤال...

"ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُمْ إِنِّي سَائِلٌ هَذَا".

ثم نبَّه هرقل أصحاب أبي سفيان بأنَّ الكلام موجَّهٌ للكلِّ، والناطق والمجيب أبو سفيان وحده، كما هي حال هرقل، يسأل عن كلّ حاشيته

من رهبانٍ وغيرهم، بعد أن قرَّبهم إليه ووجَّه الحديث لهم أنَّه سائلٌ هذا، وأومأ إلى أبي سفيان، بمعنى: خذوا احتياطكم لحديثه.

"فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ": إصرارٌ من هرقل على أن يكون الحديث صدقاً بصدقٍ، والمطلوب كما ذكرنا الإجابة من الكلِّ بلسان أبي سفيان، فإن كذب فقولوا فوراً: كذبٌ.

شبيهٌ بالمحاكمة والشهود، صراحةً أمرٌ غير معهودٍ منهم، فإن كذب في الجواب عليَّ فردُّوا عليه كذبه، إذَن المناظرة ليست مقصورةً على أبي سفيان وحده؛ فهي له ولصحبه من التجار، وإلا لَما استدعى كامل التجَّار من الأصل، فهو شبيهٌ بالاستجواب وزيادة التوثيق، هذا كلُّه والحديث لم يبدأ، فالموضوع تهيئة مناخٍ لأمرٍ مهمٍّ (نبيِّ الإسلام ورسالته).

قال أبو سفيان: **"فَوَاللَّهِ لَوْلا الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عَنْهُ"**.

هذه هي الأخلاق والحياء والصفات الحميدة والمروءة المتأصِّلة في نفس أبي سفيان، منعته من الكذب في وصف الرسول... نفسه أبت أن تكذب! درسٌ بليغٌ وأثرٌ عظيمٌ ومقامٌ رفيعٌ، يعلِّمنا إيَّاه أبو سفيان، إلى

آخر ما سوَّلت له ولصحبه، إلا قالوا في أنفسهم: فرصتنا اليوم في الطَّعن في محمَّدٍ وإفشاله...

الله أكبر! كم من نقيصةٍ مثل الكذب! اسمعوا لهذا المشرك عدوِّ الإسلام، قال أبو سفيان: يمين الله ما منعني من الكذب إلا الحياء، ولم يُعهَد عليَّ الكذب في حياتي. ويعتبر الكذب عند البعض من المباحات المنْجيات، مع أنه ليس من شِيَم الرجال الكرام وعاداتهم، أيُّ كلامٍ هذا الذي قاله أبو سفيان؟ لم تمنعه عداوته أن يقول الحقَّ، وهذه هي أخلاق الرجال.

ثم يأتي في هذا الزمان بعض السُّذَّج والسطحيّين، فيقول: من هذا أبو سفيان؟ وماذا عمل للإسلام؟ يكفيه هذه المناظرة وحدها يا مغفَّلُ!...

السؤال لك أنت: ماذا قدمت للإسلام؟!

فلا قياس ولا ميزان للحقد والحسد، أقلُّ القليل: كن كأبي سفيان، لم يكن كذَّاباً قَطُّ، ومع هذا تجد القائل أوَّلُ صفةٍ له أنه كذَّابٌ، مراوغٌ، مرتابٌ، قوَّالٌ، جوَّالٌ، قليل حياءٍ.

أفضل بيانٍ في حياة أبي سفيان عن نسب الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم، قال صلَّى الله عليه وسلَّم: «بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ حُسْنَ الْأَخْلاقِ».

ها هو ذا أبو سفيان، يرسّخ هذا المبدأ للعرب والرومان، المبنيَّ على عدم الكذب وعلى الحياء، وهما خَصلتان يحتاجهما كلُّ إنسانٍ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

ولنستمع إلى باقي البيان: قال أبو سفيان (أوَّل سؤالٍ طُرِح وسألني إيَّاه هرقل): **"ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَنْ قَالَ: كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ؟ قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ"**.

فقال أبو سفيان: هو ذو نسبٍ عريقٍ، من قريشٍ من بني هاشمٍ، وهو غنيٌّ عن التعريف، فهو من سلالة الأنبياء وكفى، الحديث: «أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، إِنَّ اللهَ خَلَقَ الْخَلْقَ، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ، ثُمَّ جَعَلَهُمْ فِرْقَتَيْنِ، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ فِرْقَةً، ثُمَّ جَعَلَهُمْ قَبَائِلَ، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ قَبِيلَةً، ثُمَّ جَعَلَهُمْ بُيُوتًا، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ بَيْتًا، وَخَيْرِهِمْ نَفْساً» [التِّرمذيُّ: 3570].

ثمَّ سؤالٌ آخَرُ، قال هرقل:

"فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ مِنْكُمْ أَحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ؟ قُلْتُ: لا".

فلو كان كذلك يكون مدّعياً للنبوَّة على شاكلة غيره، وأقربُ مثالٍ بعد الرسالة كثرة المدّعين للنبوَّة ليومنا هذا، وكلُّهم كذَبةٌ.

ومن حكمة أبي سفيان أنه يجيب بكلمةٍ واحدةٍ مختصَرةٍ، ببيانٍ دون تعقيبٍ من أحدٍ أو تعليقٍ...

"قال هرقل: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ قُلْتُ: لا".

فأبناء الملوك يسعون ويجتهدون للمحافظة على ملك آبائهم التَّليد، ولم يسعَ عليه الصلاة والسلام لا لمنصبٍ ولا جاهٍ أو سلطانٍ، ولم يسأل ذلك، والدليل: فقال لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «واللهِ يَا عَمِّ، لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي، وَالْقَمَرَ فِي شِمَالِي، عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الأَمْرَ مَا تَرَكْتُهُ، حَتَّى يُظْهِرَهُ اللهُ، أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ».

تلاحظ أن الأسئلة التي تُطرَح مرتَّبةٌ ودقيقةٌ، ولها غايةٌ للوصول إلى نتيجةٍ، ولم تكن عشوائيَّةً، فهو يبحث عن حقيقة دين الإسلام خطوةً بخطوةٍ، وبعمليَّة رصدٍ، وبحثٍ عن الهَنَات والهفَوات، نسبٌ ومدَّعٍ على أثر غيره، أو باحثٌ عن ملك أجداده.

"قال هرقل – سؤالٌ آخر لأبي سفيان –: **فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ فَقُلْتُ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ".**

ما أهمِّيَّة طرح هذا السؤال في نظرنا نحن، أو في نظر أبي سفيان؟ لا يعني شيئاً!

أمَّا بالنِّسبة للسَّائل هرقل فهو مهمٌّ جدّاً؛ لأنَّ أيَّ إنسانٍ يطرح سؤالاً يريد جواباً صحيحاً عليه، فمن البداية ركَّز هرقل على الصدق، وأشهد عليه شهوداً (رفاق أبي سفيان)، فالأسئلة ليست من هرقل بالذات، وإنَّما موجودةٌ في الإنجيل والتوراة والقرآن.

{وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [الكهف: 28]، فأتباع الديانات عادةً الضعفاء، الذين عزفوا عن الدنيا نحو الآخرة، والآخرون طلبوا الدنيا وحدها فقط: {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ} [الزخرف: 31].

هرقل يريد أن يتحقَّق من صحَّة نبوَّة هذا النبيّ، بما له عندهم من صفاتٍ للأنبياء الذين سبقوه: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ} [البقرة: 146].

والله إنه لَأمرٌ عظيمٌ عند النصارى والمسلمين العاقلين، رسَّخه هذا البيان المبين، ولا نستبق الأمور، قبل النهاية يظهر الاختلاف والخلاف بين هرقل ورجال الدين المسيحيّين!

قال هرقل: "**فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ، فَقُلْتُ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ**".

سؤالٌ له هدفٌ محدَّدٌ؛ لأنَّ – من وِجهة نظرنا – الأمر يقوى بقوَّة القويّ، وأتباعه الأقوياء الأشاوس، إلا أن سؤال هرقل وقناعته غير ذلك!

فرضاً لو قال أبو سفيان: الأقوياء – وهو منهم – أتباع الرسول لكذب على نفسه وغيره وانكشف، فالدين هو المنقذ لطبقة الفقراء والمساكين، والأقوياء لهم الدنيا بقوَّتهم.

قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: «اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكيناً، وَأَمِتْنِي مِسْكيناً، وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَساكينِ يَوْمَ الْقِيامَةِ».

فالأقوياء هم الذين يخافون من الدين أن يسلبهم وَجاهتهم، ويحاسبهم على ما ليس لهم من ملكهم، فيقفون ضدَّه، وهذا واقعٌ لا يختلف عليه اثنان في أيِّ مكانٍ أو زمانٍ، ولا أصحاب الديانات.

فكان أبو سفيان صادقاً مع نفسه والواقع، وإجابته وَفق السؤال، وهرقل يعرف هذا؛ أن الدين يتبنَّاه الذين تجرَّدوا من الدنيا وأخلصوا لله... ومن هنا كان هدف الفتوحات الإسلاميَّة؛ أن يخلِّي الحكَّام ما بين شعوبهم

والإسلام، ويتركوهم وشأنَهم، وبذلك تظهر محاسن الإسلام ومساوئ الحكَّام.

الآنَ السؤال الأوَّل يؤكِّده هذا السؤال:

قال هرقل: "أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ قُلْتُ: بَلْ يَزِيدُونَ.

قال: فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ قُلْتُ: لا".

هذه هي الحقيقة، سؤالٌ واقعيٌّ على الرَّغم من كلِّ الهجوم على تشويه صورة الإسلام في هذه الأيَّام، إلا أن الإقبال لا نظير له على دين الإسلام، باستثناء الحكَّام وأصحاب المصالح والمطامع، وقد أطلقوا عليه مسمَّى: الإرهاب، فهو فعلاً يرهبهم ويخوِّفهم؛ لأن أمرهم في تَبابٍ إذا ساد الإسلام وانكشف الغطاء عنهم.

فعلاً مناظرةٌ مفيدةٌ، تأخذ بالألباب لكلِّ طالبٍ لحقيقة الأديان، لأيِّ شخصٍ كان، فقد وضعت أساساً للبيان، بين اثنين لا علاقة لهما بالإسلام، هرقل وأبي سفيان، فلم يكونا متواطئين؛ لأنه لا مصلحة لهما في ذلك، والحقيقة أن ما يهمُّهما غير ذلك؛ وجودُ ثغرةٍ يَنفذ منها هرقل وأبو سفيان معاً، من الباب الخلفي!...

هرقل من أهل الكتاب، وعنده سؤالٌ يريد عليه الجواب، والآخر من الكفَّار، أجاب بصدقٍ وأمانةٍ، وهو عدوٌّ لَدودٌ للإسلام ورسوله.

السؤال الآن يدور حول ملامح شخصيَّة الرسول

يتواصل الحوار بين هرقل وأبي سفيان، من منطلق معرفة الحقائق من أهلها.

الآن الأسئلة تدور حول شخصية الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم، ويتساوى فيه الطرفان، هرقل يعرف ملامح الرسول مكتوبةً في التوراة والإنجيل، وأبو سفيان أقرب الأقرباء للرسول صلَّى الله عليه وسلَّم، وعاصر الرسالة من بداياتها.

"قال هرقل: فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قالَ؟ قَالَ أبو سفيان: قُلْتُ: لا".

يا سلام! كلُّ الديانات لا تحبُّ الكذب ولا الكذَّابين؛ فالكاذب ليس إنساناً سويّاً، وهو منبوذٌ، وقد كان رسولنا يدعى بالصادق الأمين في الجاهليَّة، فالصدق صفةٌ ملازمةٌ له.

قال أبو سفيان: ما عهدنا عليه الكذب وهو صغيرٌ، مع أنه عاش يتيماً بيننا، شهادةٌ أنه ما كان كذَّاباً.

سؤالٌ آخر عن صفة هذا الرسول:

"قَالَ هرقل: فَهَلْ يَغْدِرُ؟ قُلْتُ: لا".

كم هي ذميمةٌ صفة الغدر يا ناسُ! فالغدر يا بشرُ من صفات اللِّئام، على عكس صفات الكرام.

يا تُرى ما الذي يريد هرقل الوصول إليه من هذه الأسئلة؟ ليس من أجل مضيعة الوقت؟! ولا نقول إن القيصر يضيّع وقته هباءً منثوراً؛ فهو باحثٌ عن الحقيقة، ويريد أن يقنع نفسه ومَن حوله من الأساقفة وقومه بهذه المحاورة، وإلا فما فائدة سؤاله عن الأتباع الضعفاء، يزيدون أم ينقصون؟!

أراد أبو سفيان أن يعمل حركةً الْتفافيَّةً، وحتى لا يقال عنه كذَّابٌ، قال: **"نَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ لا نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا"**.

فهو يقصد أنَّنا قد تركنا قومنا من مدَّةٍ في سفرنا هذا، لا نعرف أكان محمَّدٌ غيَّر أو بدَّل فيما أشرنا إليه، مع أنَّ مثل هذا تهرُّبٌ من الواقع؛

فالأنبياء لا يغيّرون ولا يبدّلون، كقول عيسى ابن مريم عليه السلام: {مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ} [المائدة: 117].

ثم قال أبو سفيان: "**وَلَمْ تُمْكِنِّي كَلِمَةٌ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ**"؛ ما أسعفه الحظُّ أن يجد غير ما ذكر، هذا ما قدر عليه أبو سفيان أن يطعن بالرسول الكريم صلَّى الله عليه وسلَّم.

ما استطاع أبو سفيان أن يأتي بشيء يغمز من قناة الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم أمام هرقل عظيم الروم، إلا هذا الأمر المكشوف.

صراحةً أبو سفيان وموقفه رجوليٌّ، حتى في الكلام، وما ينوي ويضمره في نفسه أطلعنا عليه دون أن يخفيه، وهذا حديث النفس الذي لا يعلمه أحدٌ سوى اللهِ.

إلا أنه يعرف ما قيَّد به نفسه من عدم الكذب، والحياء، والشهود الذين خلف ظهره، قيدٌ متينٌ من أيِّ زللٍ أو خللٍ يظهر فوراً...

الآن سؤالٌ عن العلاقات العامَّة ما بين الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم والمشركين:

قال هرقل لأبي سفيان: "فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ، قُلْتُ: نَعَمْ".

يا أخي حتى سؤال هرقل عجيبٌ عن المقاتلة بين أنصار الحقِّ والباطل، ماذا يستفيد من هذا السؤال؟

دائماً أصحاب المبادئ يلاقون مقاومةً شديدةً ومقاتلةً ومعارضةً لا هَوادة فيها، وخاصَّة الأنبياءَ ودعاةَ الحقِّ؛ لأن الباطل يجد من يمنعه من التمادي، فيلجأ إلى أسلوب العنف والردِّ والقتال...

قال الله تعالى: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ} [الحج: 39].

وقد يكون زيادة بيانٍ لما هو مدوَّنٌ في التوراة والإنجيل.

قال هرقل عظيم الروم: "فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟"

مناوراتٌ ومناوشاتٌ؟!

قال أبو سفيان دون لفٍّ أو دورانٍ: "قُلْتُ: الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ، يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ".

يومٌ له النصر والغلَبة، ويومٌ ننال منه، كلامٌ واضحٌ، وبذلك وصل الجواب، قال قيصر: نعم، تأكَّدت ممَّا لديَّ من معلوماتٍ وأسئلةٍ وأجوبةٍ.

والآن ننتقل في المحاورة إلى مرحلةٍ جديدةٍ وأسئلةٍ في صلب الموضوع والهدف من الرسالة.

السؤال الأول في موضوع الرسالة:

قال هرقل: "مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟"

والله محاورةٌ وأسئلةٌ عن دقيق الأمر! يرغب هرقل في معرفة الأوامر الصادرة عن حضرة الرسول؛ لأن هذا هو كُنْهُ الرسالة والديانة، كرسالة أخيه عيسى في الإنجيل.

قال أبو سفيان: "قُلْتُ: يَقُولُ: اعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ. وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلاةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ وَالصِّلَةِ".

إذا كنت تعرف هذا كلَّه يا أبا سفيان، فبالله عليك، ما الذي كان يمنعك من إعلان إسلامك؟!

ومع هذا كان أبو سفيان صريحاً وغير كذَّابٍ في نقل مضمون رسالة الإسلام، كما ذكر.

وجاء بمختصرٍ جميلٍ مفيدٍ، جاء على دعوة الرسول ممَّا يدلُّ على سَعة اطِّلاع أبي سفيان على مفاصل الرسالة النبويَّة، وما كان يمنعهم عن الإسلام إلا تعَنُّتهم وكبرهم وإعراضهم؛ خوفاً على مكانتهم ونكراناً

وجحوداً... قال الله تعالى: {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} [الأنعام: 33].

وقد حاربوا الإسلام أشدَّ محاربةٍ؛ دفاعاً عن معتقداتهم الباطلة الفاسدة، وهذا ما يؤكِّد سجال الحرب بين الإيمان والباطل الذي سأل عنه هرقل.

والآن هذه المحاورة ليست قصَّةً تُقال، تتناقلها الأجيال، فهذا أعظم بيانٍ بين أعظم رجلين لا يَمُتَّان بصلةٍ لدين الإسلام، أحدهما من أهل الكتاب، والآخر من المشركين المناوئين لدين الإسلام، وهذا ما أثبته القرآن الكريم، بقول الله الحكيم: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ} [المائدة: 82].

فالحديث كلُّه يدور في البحث عن الحقيقة وصحَّة عقيدة دين الإسلام، وجاء على لسان هرقل عظيم الرومان؛ ليثبت لنا بوصفنا مسلمين ولهم بوصفهم نصارى قولاً وفعلاً ما جاء بالإنجيل، وما توارثته الأجيال من عهد موسى وعيسى عليهما السلام، إلى خاتم النبيّين محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، فالأديان أصلها من مَعينٍ واحدٍ، قال الله تعالى: {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ

إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} [الشورى: 13].

كان هرقل يسأل ويصدِّق أبا سفيان حقيقةً؛ لما له بذلك من علمٍ، ولما هو مثْبتٌ عنده من علمٍ في الإنجيل والتوراة، قال الله تعالى: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ} [الصف: 6].

فكلاهما – السائل هرقل والمسؤول أبو سفيان – يقرَّان بحقيقة دين الإسلام حتى تحسَبهما قد اقتربا من الإيمان ونطق شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمَّداً رسول الله، ثم يبتعدان ولا ينطقان.

قال الله تعالى: {مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا}.

وقد كانت الهداية فيما بعد من نصيب أبي سفيان رضي الله عنه في فتح مكَّة.

وأمَّا هرقل فقد خاف من قومه، فبقي على شركه!

ولله في ذلك حكمةٌ وإرادةٌ.

انظر كيف لو أسلم هرقل بعد هذه المناظرة والمحاضرة، لكانت أفضل حياةٍ يعيشها الإنسان على سطح الكرة الأرضية، قال الله تعالى: {فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ} [يونس: 98].

ولكن ستجد أن قومه وقفوا حائلاً بينه وبين دين الإسلام، فعليهم ما يستحقُّون!

أمنية هرقل: غاسل قدمي الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم!

أمنيةٌ ما خطرت على قلب امرئٍ من قبل، إلا ممَّن عرف قيمة وبركة ومكانة الرسول، الله أكبر! غاسل قدمي الرسول؟! إذَن كيف بنا نحن المسلمين مع الرسول؟ ما هي أمنياتنا وتطلُّعاتنا؟ فهو في سويداء القلب وكحل العيون...

أستغرب دقَّة الأسئلة الموجَّهة من هرقل لأبي سفيان، وكم أخذت من الوقت في الإعداد لها، فهي وإن كانت مختصرةً إلا أن دلالاتها عظيمةٌ، وكأنَّ أبا سفيان خبيرٌ أو مستشارٌ دينيٌّ أو متخصِّصٌ وعنده كلُّ هذه

المعلومات القيِّمة، ومع هذا يصرُّ على الشرك! مفارقةٌ عجيبةٌ. وهكذا جاء القرآن يكشف ما في نفوسهم، مقارنةً مع مثله من المتخصِّصين في هذا المجال من الطرفين – هرقل وأبي سفيان – بعضهما أعتى من بعضٍ، السائل والمسؤول... والجواب عليها أعظم، وفعلاً من يُرِدِ الحقيقة ويسعَ للقناعة، يكفِه هذا اللِّقاء وهذه المناظرة، بين شخصيَّتين مميَّزتين وضعتا أسساً للبحث والنتيجة معاً، وكأنَّ الأمر مقصودٌ للغائب والموجود. والآن نصل لمتابعة باقي الأسئلة فقد شارفت على النتيجة المفيدة.

قال هرقل: "وَسَأَلْتُكَ: هَلْ يَغْدِرُ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لا، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لاَ تَغْدِرُ".

الغدر مرَّةً ثانيةً منتهى الخيانة لله ورسوله وللخلق جميعاً، والأنبياء والرسل والدعاة تعالَوا عن سفاسف الأمور عُلوّاً كبيراً، ولا غدر ولا خيانة؛ لأنَّهم ليس من شيمهم وأخلاقهم وصفاتهم ذلك.

وكان جواب هرقل موافقاً لجواب أبي سفيان، الذي يستعرض سيرة الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم، فهي صفحةٌ بيضاءُ لم يسجَّل عليها وفيها

إلا الخير والإحسان وحسن المعاملة، فعلاً شهادةٌ من أبي سفيان بحقِّ الرسول عليه الصلاة والسلام، عظيمةٌ كريمةٌ.

الحقيقة الأخيرة:

وهي الأهمُّ؛ لأنَّها عن الرسالة الإسلاميَّة بالذات، بما هو موجودٌ في الإنجيل والتوراة، ولكنْ هيهات هيهات لمن يؤمن برسالة الإسلام!

قال هرقل: "وَسَأَلْتُكَ: بِمَ يَأْمُرُكُمْ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ، وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَيَنْهَاكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلاةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ".

مبادئُ ساميةٌ راقيةٌ، وهي معروفةٌ لدى هرقل؛ فهي عباداتٌ دينيَّةٌ، وها هو ذا قد ذكرها مرَّةً أخرى، وهي ما بين قوسين: (عبادة الله وحده، وعدم الشرك، وعدم عبادة الأوثان بأنواعها، وأمرٌ بالصلاة والصدق صفةً مميَّزةً، والعفاف للرجال والنساء).

"**فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقّاً**"؛ إن كان ما تقول صحيحاً يا أبا سفيان – وقد أثبتت الأيَّام صحَّة كلام هرقل وأبي سفيان، وهذا هو الجواب

الصحيح؛ النتيجة المستقبليَّة لما ذكر من أسئلةٍ وأجوبةٍ -: **"فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ"**.

وقد تحقَّق وكان، وهذا إقرارٌ واعترافٌ ليس من رجلٍ عاديٍّ، وإنَّما من عِلية القوم، وله الكلمة والسلطة والنفوذ والسلطان، إنه هرقل عظيم الروم!

الذي قال هذه الكلمة على ملأٍ من الحاضرين، من قومه ورجال الدين والأساقفة، هو هرقل بالذات!

ثم اسمع التعقيب من هرقل يقيناً دون شكٍّ، وبصراحةٍ غير معهودةٍ عند الآخرين: **"وقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أنَّهُ خَارِجٌ"**؛ أي الرسولَ، وكأنَّ الرجل يسجِّل براءةً أمام كلِّ الحضور إلى يوم الدين، أنَّ ما بلَّغ به عيسى عن أخيه محمَّدٍ عليهما الصلاة والسلام؛ خارجٌ لا محالةَ، ومثْبتٌ في الإنجيل: {وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} [الصف: 6].

إلا أن هرقل قال كلمةً لم يكن يتوقَّعها أحدٌ:

"لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ".

تصوَّر الحسد والبغض من أهل الكتاب، أن تكون الرسالة وحاملها من أمَّة العرب، وهم يعترضون على الله في اختياره واصطفائه، وهذا منتهى الحقد على أمَّة الإسلام.

على الرَّغم ممَّا سمعت من حوارٍ، ومع كلِّ ما هو موجودٌ، حتى اسم الرسول في كتبهم، فهم ينكرون ذلك ويجحدون!

ومع هذا كان جوابه الذي سمعت بالإضافة لأجوبة أبي سفيان عن الرسول والرسالة معاً، والدليل قوله: **"فَلَوْ أَنِّيْ أَعْلَمُ أَنِّيْ أَخْلُصُ إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ"**.

طبعاً هو يعلم علم اليقين أنه لن يخلص للوصول لحضرة الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم ليؤمن به، والسبب معروفٌ أشار إليه بنفسه تصريحاً لا تلميحاً: **"لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ"** على الرَّغم من وجود القناعة لديه، وهو مثْبتٌ بالرسالة بين يديه.

فهذا هو المانع: التعنُّت والاستعلاء والكبرياء، والخوف من الأساقفة والأباطرة والخاصة والعامة على حدٍّ سواءٍ، وإلا لاستسهل الصِّعاب للقاء الرسول، فمنعه خوفه من قومه!

أي لو كان هذا الرسول من قوم هرقل فما من مشكلةٍ أن يؤمن به، وهذا هو الحسد الذي تأصَّل في النفوس إلى يوم الدين.

ويشاطره الرأي أبو سفيان بمعاداته للإسلام، وهما على ذلك يلتقيان في ذلك الزمان والمكان، والذي يظهر لي من كلام هرقل جانبان:

الجانب الأول: لو كان يعلم أنه يخلص إلى الرسول من أذى قومه لقدم على خدمة الرسول إجلالاً واحتراماً وإكباراً؛ لأنه يعرف معنى قيمة خدمة الرسل عليهم الصلاة والسلام.

فقال: "وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ".

هذه أمنية هرقل عظيم الروم، يا أبا سفيان، ابن أبي كبشة، كما تقول، هرقل عظيم الروم يتمنَّى أن يتحقَّق له ذلك الحلم، في غسل قدمي الرسول محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، أمنيةٌ لا مثيل لها في نظر البعض، قدميه؟! نعم قدميه ليس إلا.

الجانب الثاني: وكأنَّ هرقل يعتب على أبي سفيان: أنت في هذه المكانة والعقل والمعرفة، وتعرف حقيقة دين الإسلام، وعن رسوله، ومن أقاربه، وما زلت على شركك؟!

هـل تعـرف يا أبا سـفيان أن لـو كنـت مكانـك فمـاذا أفعـل لرسـول الإسلام؟ فقط غاسل قدمي الرسول، هذا شرفٌ لي، ومع هذا ما ناله هرقل!

انتهت المناظرة والمحاورة بين هرقل وأبي سفيان، وهي وثيقةٌ باقيةٌ تشهد بوحدانيَّة دين الإسلام، وعلى الرَّغم من انتهاء المحاورة ما بين عظيم الروم هرقل، وأبي سفيان تاجر مكَّة المكرَّمة في الجاهليَّة، إلا أنَّهما ما زالا يجلسان في المكان نفسه، في حديثٍ جانبيٍّ بينهما في استراحةٍ، كما هي عادة المحاورين في المنتديات.

وفي هذه الأثناء، وفي غفلةٍ من الجميع:

فإذا طارقٌ يأذن بِوصول كتاب حضرة رسول اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، مع تَرجمانه الذي لم يغادر المكان بعد، فَقَرَأَهُ على هرقل، فإذا فيه:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ

إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ

سَلامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلامِ

أَسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ

فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ

ثمّ تلى {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران: 64].

بداية الكتاب جاءت بالبسملة، وبأسماء الله الحسنى (الله، الرحمن، الرحيم).

ثم جاء اسم الرسول محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، بصفته رسولَ الله.

والكتاب موجَّهٌ إلى أهل الكتاب، معروفٌ من عنوانه، ومن باب الأدب والاحترام والتقدير، ذُكر هرقل عظيم الروم بصفته ومكانته وفخامته وعلمه بين قومه، ثم طرح السلام مشفوعاً بالهداية على من اهتدى بهدي الله، ما زالت جماليَّة الافتتاحيَّة والإضاءة تنير الكتاب.

أمَّا بعد، فإنِّي أدعوك بدعاية الإسلام:

اسْتِفْتاحٌ وعرضٌ للرسالة بأسلوبٍ جميلٍ مع بيان ما فيها من الإغراء والتذكير وتحمُّل مسؤوليَّة الآخرين والدعوة للتوحيد، وعدم الشرك برب العالمين. الجواب جاء مختصَراً مفيداً، أتى على مجمل الرسالة.

ثم جاءت الدعوة لك، أي إلى هرقل بالذات، من رسول الله محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم للإسلام، ففيه السلامة والنجاة من الضلالة إلى النور، وفي ذلك الأجر والثواب له مرَّتين؛ لأن بهداية هرقل عظيم الروم هدايةَ أمَّةٍ، فله أجر ذلك، وأجر هداية أمَّته بهدايته.

وفي المقابل: إن تولَّيت – وقد كان منه ذلك – فسيكون عليك إثم قومك كلِّهم ووِزرهم؛ بسبب إعراضك عن دين الله.

هذه هي أمانة المسؤوليَّة، قال الله تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} [الأحزاب: 72].

وختم كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم بأجمل آيةٍ وأحسن نداءٍ بكلِّ احترامٍ وأدبٍ وخلقٍ:

{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ} – أي يا محمَّدُ نادِ أهل الكتاب.

{تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ} وهي دعوة التوحيد (لا إله إلا الله).

{أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}.

هذه هي دعوة رسول الإسلام، جواب جاء في بيانٍ موجزٍ ودعوةٍ كاملةٍ، وهي من الرسائل والكتب التي وجّهت من الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم للملوك والرؤساء في عهده الميمون، للدعوة للإسلام.

طبعاً أبو سفيان ما غادر المكان، ما زال جالساً، وسمع وأنصت للرسالة والجواب، وفهم معنى الخطاب،

إلا أن أبا سفيان لاحظ تغيُّر الأجواء وتعكُّرها، وارتفاع الأصوات وكثرة الاحتجاجات على هرقل وعلى ما جاء في الكتاب.

قال الله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ} [البقرة: 206].

قال أبو سفيان: "فَلَمَّا قَالَ مَا قَالَ – أي هرقل – وَفَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الْكِتَابِ كَثُرَ عِنْدَهُ الصَّخَبُ، وَارْتَفَعَتِ الأَصْوَاتُ".

وارتفعت الأصوات من الأرباب، فهم المقصدون بالكلام، فقد جاء ذكرهم في كتاب الرسول آنفاً،

{اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ} [التوبة: 31].

وهذه منزلةٌ لن يتنازلوا عنها بالسهولة؛ فأبو سفيان أنصت يريد معرفة الذي حصل بأيّ ثمنٍ كان،

وما سبب الجلبة ورفع الصوت، عندها فطن القوم، ونسوا أبا سفيان وصحبه، فسارعوا وأخرجوهم من الباب الذي دخلوا منه.

قال أبو سفيان: "وَأُخْرِجْنَا".

كلمةٌ حلوةٌ، بلا مطرودٍ، تفضَّلوا اخرجوا.

وهم خارجون عرف أبو سفيان أن الأمر الذي تضمَّنته الرسالة ينسخ دينهم من أساسه، وفهم أن الإسلام ورسوله آتٍ ديارهم لا محالةَ، عاجلاً غير آجلٍ.

فقال أبو سفيان وهو على الباب: "فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي حِينَ أُخْرِجْنَا: لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ".

يا سلام! ما أحلى كلمات اللُّغة العربيَّة ومفرداتها، فقد ترد الكلمة بنفس الصورة والحروف، وتختلف بالحركات، وكلُّ واحدةٍ تعطي معنىً يختلف عن الآخر، كرائحة الأزهار وأسمى العطور، انظر كلمتي: "أَمِرَ أَمْرُ"، فالأولى تفيد ظهور أمر إمارة الرسول، فصار أميراً، أي يرسل الرسائل لملوك الدنيا، والثانية تفيد نفوذ أمره وإنجازه عمله.

الآن انتهت المحاورة مع هرقل وقبل قليل قال أبو سفيان الشيء الكثير في أحسن صفات الرسول، والآن يعود أبو سفيان إلى نقطة الصفر، لما قبل المحاورة، ولما كان عليه من كلامٍ جاهليٍّ فيقول: "ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ".

فأَمِرَ أمرُ الرسول، بان وظهر. "لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ، إِنَّهُ كان يَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الأَصْفَرِ".

وبدأ أبو سفيان يلمِز ويغمِز حتى في ملك الروم، "مَلِكُ بَنِي الأَصْفَرِ"، وهو قبل قليلٍ في محاورةٍ معه بكلِّ أدبٍ.

ثم أثبت أبو سفيان لنفسه شيئاً جميلاً: أن الله سيُظهر هذا الدين، ويمنُّ عليه بالإسلام.

فقال: "فَمَا زِلْتُ مُوقِنًا أَنَّهُ سَيَظْهَرُ، حَتَّى أَدْخَلَ اللهُ عَلَيَّ الإِسْلامَ".

وهذه إرهاصات أبي سفيان وتوقُّعاته، فقد هداه الله لدين الإسلام، وسنعود لنعرف حقيقة سبب رفع الأصوات بين يدي هرقل فيما بعدُ إن شاء الله.

تعالت أصواتٌ وجلبةٌ في مجلس هرقل عظيم الروم، بعد قراءة كتاب الرسول، وقبل قليلٍ كنَّا ننصت خاشعين محاورين ومستمعين، نتابع محاورة هرقل وأبي سفيان عن دين الإسلام ورسوله.

فلمَّا قرأ هرقل كتاب الرسول المرسل إليه حصل هرجٌ ومرجٌ وأصواتٌ، وهذه صفة الضعيف الذي لا حجَّة له ولا برهان إلا برفع صوته الرنَّان، واستعمال رجله ويديه والعقال.

وبعد خروج أبي سفيان من ذلك المكان لا نعرف ماذا صار من احتجاجٍ!

تكتَّم القوم تكتُّماً غريباً وسرّيّاً للغاية، وغلّقت دونه الأبواب دون تسريباتٍ، وخلال المحاورة عرفنا أن هرقل هو عالمٌ من علماء النصارى ورئيسهم، فقد ورد في الحديث: «وَكَانَ ابْنُ النَّاظُورِ صَاحِبُ إِيلِيَاءَ وَهِرَقْلَ سُقُفًّا عَلَى نَصَارى الشَّأْمِ».

كانا حكيمَين عالِمَين في الوقت نفسه، واتَّصف هرقل بالحكمة وبعد النظر والتأنِّي، وله صفةٌ أخرى، وهي النظر في النجوم: «وَكَانَ هِرَقْلُ حَزَّاءً يَنْظُرُ فِي النُّجُومِ»، وهذا علمٌ قائمٌ بذاته، وله أسراره وأخباره من العارفين، لا الدجَّالين.

«رؤيا هرقل في المنام ملك الختان»، ففي يومٍ ما قال هرقل لقومه: **"فَقَالَ لَهُمْ حِينَ سَأَلُوهُ: إِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ حِينَ نَظَرْتُ فِي النُّجُومِ مَلِكَ الْخِتَانِ قَدْ ظَهَرَ"**.

والختان هو موضع قطع القلفة من الذَّكر، ويقصد بذلك ظهور نبيٍّ هذه الأمَّة، فقد سأل قومه: **"فَمَنْ يَخْتَتِنُ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ"؟**

قال قومه جواباً على سؤاله: "لَيْسَ يَخْتَتِنُ إِلَّا الْيَهُودُ، فَلا يُهِمَّنَّكَ شَأْنُهُمْ".

وبينما الحديث يدور بين هرقل وقومه عن الختان، ولم يكن يدور في خلدهم إلا اليهود أهل ختانٍ، مع أن اليهود غير مقصودين، فقد انتهت الرسالة فيهم.

المهمُّ: **"فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى أَمْرِهِمْ، أُتِيَ هِرَقْلُ بِرَجُلٍ أَرْسَلَ بِهِ مَلِكُ غَسَّانَ"**.

رجلٌ آخر نقل وأكَّد خبر الرسول، يُخْبِرُ عَنْ خَبَرِ رَسُولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم.

إذَن هذا هو المقصود بالذات، ولا بدَّ من معرفة الحقيقة وكشفها، فهذا الرجل المرسل قد جاء بدمه ولحمه، مرسلاً إلى هرقل من ملك غسَّانَ.

"**فَلَمَّا اسْتَخْبَرَهُ هِرَقْلُ** – أُخِذَ الرجل للتَّأكُّد من خِتانه – **وقال هرقل لبعض قومه: اذْهَبُوا فَانْظُرُوا أَمُخْتَتِنٌ هُوَ أَمْ لا"**.

على الرَّغم من سؤال الرجل وجوابه، إلا أن ذلك غير كافٍ، لا بدَّ من الكشف الحسِّيّ؛ حتى يتأكَّد هرقل ممَّا رأى.

"**فَنَظَرُوا إِلَيْهِ** – وجاؤوا إلى هرقل بعد النظر إليه – **فَحَدَّثُوهُ أَنَّهُ مُخْتَتِنٌ"**.

لم ينته الأمر عند هذا الحدِّ، ومع هذا سأل هرقل الرجل؛ علَّه يكون حالةً استثنائيَّةً؛ من أجل أن يتأكَّد من الختان.

"وَسَأَلَهُ عَنِ الْعَرَبِ، فَقَالَ: هُمْ يَخْتَتِنُونَ".

الآن تأكَّد هرقل يقيناً لا يخالطه الشكُّ أنَّ هذه الأمَّة تختتن، ومع هذا، **"فقَالَ هِرَقْلُ: هَذَا مَلِكُ هَذِهِ الأُمَّةِ قَدْ ظَهَرَ".**

إذَن هذا تأكيدٌ آخر على رسالة الإسلام من هرقل عظيم الروم.

إذن صفاته موجودةٌ عندهم في التوراة والإنجيل، وهذه هي دلائل ظهور نجم محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم.

واكتفى هرقل دون أن ينطق حتى اسم محمَّدٍ، "فَقَالَ هِرَقْلُ: هَذَا مَلِكُ هَذِهِ الأُمَّةِ قَدْ ظَهَرَ".

ومع هذا كلِّه، ولأهمِّيَّة الأمر عند هرقل، وعلى الرَّغم من رؤية الرجل مَختوناً وسؤاله وجوابه، إلا أن هرقل **"كَتَبَ إِلَى صَاحِبٍ لَهُ بِرُومِيَّةَ، وَكَانَ نَظِيرَهُ فِي العِلْمِ".**

وخرج هرقل بنفسه إلى حمص ينتظر الجواب بشغفٍ، وجاءه الجواب على جناح السرعة.

"أَتَاهُ كِتَابٌ مِنْ صَاحِبِهِ يُوَافِقُ رَأْيَ هِرَقْلَ عَلَى خُرُوجِ النَّبِيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وَأَنَّهُ نَبِيٌّ".

تأكَّدت نبوَّة سيِّد الخلق محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم من علماء النصارى، هرقل وصحبه.

من متى كان هذا؟ من زمان بداية الرسالة، فما لهم لا يؤمنون، وإذا عُرِض عليهم الإسلام لا يسلمون؟! لنسمع الجواب وما حصل بعد تأكُّد الخبر اليقين.

هرقل ودعوته للبحث والمداولة في أمر هذا الدين وخاتَم المرسلين

اجتماعٌ طارئٌ وسرِّيٌّ للغاية، بأمر هرقل عظيم الروم.

هرقل يملك ضمن مدينة حمص قريةً خاصَّةً به لراحته واستجمامه، تُسمَّى: (دَسْكَرَةً)، أي قريةً، فدعا أعيان قومه إلى تلك القرية:

"فَأَذِنَ هِرَقْلُ لِعُظَمَاءِ الرُّومِ فِي دَسْكَرَةٍ لَهُ بِحِمْصَ"، ثم أمر جنده بإغلاق الأبواب والمنافذ، ومنع الخروج والدخول من القرية وإليها مطلقاً: **"ثُمَّ أَمَرَ بِأَبْوَابِهَا فَغُلِّقَتْ"**.

وبدأ حديثه وهو عالمٌ وأسقفٌ، ورأس الدولة:

"**فَقَالَ يَا مَعْشَرَ الرُّومِ**"، فانتبه القوم إلى هرقل! ماذا عساه أن يقول؟ وقد وجِّهت إليه الأنظار... أمرٌ هامٌّ جدًّا.

في مصلحة الكلِّ وحقناً للدِّماء وحفاظاً على البلاد، طلب منهم البيعة لهذا النبيِّ الذي ظهر وقال:

"**هَلْ لَكُمْ فِي الْفَلاحِ وَالرُّشْدِ، وَأَنْ يَثْبُتَ مُلْكُكُمْ فَتُبَايِعُوا هَذَا النَّبِيَّ؟!**"

كلامٌ في منتهى الدقَّة والوضوح والملاحظة والخطورة معاً.

إرهاصاتٌ ومحاوراتٌ ومناظراتٌ، وبُعد نظرٍ وتوقُّعٌ من هرقل لِما سيحصل في حال الرفض، وربطٌ للأحداث بعضها مع بعضٍ... فانظر ما حصل بعدما طرح هرقل رأيه:

"**فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إِلَى الأَبْوَابِ، فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِّقَتْ، فَلَمَّا رَأَى هِرَقْلُ نَفْرَتَهُمْ، وَأَيِسَ مِنَ الإِيمَانِ قَالَ: رُدُّوهُمْ عَلَيَّ، وَقَالَ: إِنِّي قُلْتُ مَقَالَتِي آنِفًا أَخْتَبِرُ بِهَا شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ، فَقَدْ رَأَيْتُ.**

فَسَجَدُوا لَهُ وَرَضُوا عَنْهُ، فَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ شَأْنِ هِرَقْلَ".

وكذلك يفعلون، فحملوا إصرهم وإصر غيرهم إلى يوم الدين، وهذا آخر شأن هرقلَ.

وقال قولته المشهورة باختصارٍ: وداعاً يا دمشقُ لا لقاء بعده، وبذلك غادر الروم ذلك المكان إلى غير رجعة.

ما بين قوسين: (كيف لو أطاعوه)؟

إذَن لَتغيَّر وجه الزمان والمكان، وحُقِنَت الدماء، ودخل الناس في دين الله أفواجاً... فالعقلاء أعداؤهم الجهَلة في كلِّ حينٍ ومكانٍ.

حقائق عن أبي سفيان

الحقيقة الأولى: أبو سفيان الآن يخوض معركة اليرموك رغم كبر سِنّه!

بالأمس القريب كان محاوراً لهرقل ومناظراً له، واليوم يقف منفِّذاً وعد وبشرى فتح بلاد الشام.

الغريب العجيب أن هذا الدين تأثيره في النفس المؤمنة عظيمٌ، ليس له مثيلٌ، يصنع العجائب في فترةٍ زمنيَّةٍ قصيرةٍ من عمر الزمن، ويجعل الشخص إنساناً آخر، كلُّه طهارةٌ وعِفَّةٌ.

فهذا أبو سفيان يتحوَّل إلى أسدٍ هَصورٍ، يقطع الفيافي والجبال والسهول، ليس للتجارة، هذه المرَّةَ قاصداً بلادَ الشام للجهاد والشهادة والنصر، لا للجلوس إلى هرقل العجوز... وإنَّما خرج أبو سفيان الشيخ الكبير، وقد تجاوزت سنواته الستة والسبعين، خرج فاتحاً مع جيش المسلمين، ليس متَّكئاً على عكَّازٍ أو عربة قعيدٍ، تَحدوه نشوة ماضي

الشباب، وخبرة الرجال... فارسٌ ممارسٌ وخطيبٌ مفوَّهٌ شديدٌ، عزمه عزم الحديد، فقد ارتوى من نبع الإيمان وعذوبة الإسلام.

للعلم: لأبي سفيان سبعة أولادٍ ذكورٍ، وعشر بناتٍ، إحداهنَّ أمُّ المؤمنين أمُّ حبيبةَ، رضي الله عنها.

في معركة اليرموك رافقته زوجه هند بنت عتبة، وابناه يزيد ومعاوية، لم تكن هذه رحلةَ زيارةٍ واستجمامٍ، بل نصرٍ أو شهادةٍ، وهزيمةٍ منكَرةٍ للرومان.

في أرضٍ ما وطِئتها أقدامهم، في وُعورةٍ وتضاريسَ ما عرفوها في حياتهم، وكأنّي بزوجه هندٍ وهي ترتجز تلك الأبيات، خلف جيش المشركين في غزوة بدرٍ:

"قَامَتْ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ فِي النِّسْوَةِ اللَّوَاتِي مَعَها، وَأَخَذْنَ الدُّفُوفَ يَضْرِبْنَ خَلْفَ الرِّجَالِ، وَيُحَرِّضْنَهُمْ، فَقَالَتْ هِنْدٌ، فِيمَا تَقُولُ:

إِنْ تُقْبِلُوا نُعَانِقْ

وَنَفْرِشِ النَّمَارِقْ

أَوْ تُدْبِرُوا نُفَارِقْ

فِرَاقَ غَيْرِ وَامِقْ

وَتَقُولُ:

وَيْهَا بَنِي عَبْدِ الدَّارِ

وَيْهَا حُمَاةَ الأَدْبَارِ

ضَرْبًا بِكُلِّ بَتَّارِ...

والآن تبرز خبرات أبي سفيان العسكريَّة التي اختزنها في ذاكرته، فكان له رأيه وحِنكته، وكان يصول ويجول ويتحوَّل من مكانٍ لآخر بين صفوف الجيش، ليفيض عليهم من خبرته، حتى بلغ مراده فإذا هو وجهاً لوجهٍ مع القادة العسكريّين، ووجدهم وهم يخطِّطون للمعركة، فقال مستغرباً: ما كنت أظنُّ أنِّي أبقى حتى أرى غِلْمَةً من قريشٍ يذكرون أمر حربهم، ويكيدون عدوَّهم في حضرتي ولا يُحْضِرونني!

وأشار عليهم كقائدٍ حربيٍّ ميدانيٍّ له باعٌ طويلٌ في هذا المجال، فقال:

"إن معسكركم هذا ليس بمعسكرٍ، إنّي أخاف أن يأتيكم أهل فلسطين والأردن، فيَحولوا بينكم وبين مددكم من المدينة، فتكونوا

بين عسكرهم، فارتحلوا حتى تجعلوا (أذرعات) – أي درعا – خلف جيشكم". فهو صاحب معرفةٍ بالبلاد والمواقع.

فأخذوا بمشورته؛ وذلك لأهمِّيَّة معركة اليرموك، فهي مصيريَّةٌ، حشدت فيها كلُّ الطاقات البشريَّة، مع ما يلزم ذلك؛ لأن المنتصر هو الذي سيغيِّر وجه التاريخ بعون الله، وكان النصر حليف المسلمين.

والدليل على ذلك آل أبي سفيان وأمثالهم، كلُّهم خرجوا للمشاركة في معركة اليرموك، وفيهم أبو سفيان نفسُهُ، وابنُهُ يزيدُ الذي كان من قادة المعركة، وشارك فيها أيضاً ابنُهُ الآخَرُ معاويةُ، وعبدُهُم وحشيٌّ... كلُّ ذلك في سبيل الله، وطلباً لرضاه، وتكفيراً عمَّا جنت يداه قبل الإسلام.

وفي يومٍ اشتدَّ القتال ضراوةً وصرامةً، في موقعةٍ من مواقع أيَّام اليرموك، تسمَّى: يوم خسارة العيون!

فقد أمطر العدوُّ المسلمين بالنِّبال والسِّهام، وقد خسروا من أعينهم في ذلك اليوم الكثير، ومنهم أبو سفيان، فقد فُقِئَتْ عينه الثانية، والأولى فُقِئَتْ في حصار الطائف، فأصبح لا يرى بهما شيئاً، وبقي صابراً على بلواه، محتسباً في سبيل الله.

هـؤلاء القـوم صـنع وصـاغ مـنهم الإسـلام صـياغةً إيمانيَّـةً غـير معهـودةٍ، فكـان لهـم شـرف حمـل لـواء رسـالة الإسـلام، فقـد جنَّـدوا لهـذا الأمـر أنفسـهم وأهلـيهم وأمـوالهم، وتركـوا ديارهـم، ومـاتوا شـهداء، وأسـلم أبـو سفيان فيما بعد، فنال رضا الله ورسوله.

بشرى لأبي سفيان رضي الله عنه وأرضاه

عتبي على كلّ الذين يلمِزون ويهمِزون بعض الصحابة الكرام!

أقول: اسمع يا هذا ما قال رسول اللهِ صلَّى اللهُ عليه وَسلَّمَ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي؛ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ».

وقال المولى عزَّ وجلَّ: {مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ} [الأنعام: 52].

وأنا أقول: ما قدَّم هؤلاء الهمَّازون للإسلام لا يساوي ذرَّةً من ترابٍ على شراك نعل أحدهم.

ونحن لا نحاسب ولا نعاتب، ولسنا قضاةً على أفعال الآخرين وأقوالهم وأعمالهم، فقد أفضوا إلى الله، ولا ندَّعي فهم وإدراك كلّ شيءٍ عنهم....

والدليل ما كان بين نبيّ الله موسى عليه السلام والخضر، قال تعالى: {وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا} [الكهف: 68].

ما تراه بأمِّ عينك أو فكرك أو إحساسك فأرجع الأمر فيه إلى الله، ولا تنصب نفسك حكماً على خلق الله، ويكفي أن تراقب نفسك وتلزمها بطاعة الله، تكن من خيرة خلق الله.

ولو سألت هؤلاء الذين أطلقوا العَنان لألسنتهم وبدأوا يطلقون الأحكام، ويدخلون الناس النار، ويخرجون منها آخرين بدون حسابٍ أو عذابٍ فمَن خوَّلهم بهذه المهمَّة؟!

لو سألت نفسك بكلِّ تجرُّدٍ وحِيادٍ، وعملت مقارنةً ومحاورةً بينك وبين من تلعنه أو تسبُّه أو تشتمه، ونظرت ماذا قدَّم أبو سفيان لنصرة الإسلام، وماذا قدَّمت أنت للإسلام؟!

الجواب بدون تصريحٍ أو تلميحٍ ظاهرٌ للعيان، احتفظ به لنفسك حتى تلقى به الله الدَّيَّان.

وأقرب دليلٍ أن نرجع إلى الوراء قبل قليلٍ، لمحاورة هرقل وأبي سفيان، بالنِّسبة لي بوصفي إنساناً، على الرَّغم من كفر أبي سفيان، فقد أنصف

رسول الإسلام، صلَّى الله عليه وسلَّم، ونشر دعوته، وسجَّل أعظم بيانٍ، وكان صدقاً، ولم يكن كذَّاباً.

أمَّا الكذاب فهو الذي تخالف أقواله أفعاله، ويشهد عليه إجرامه، ومن ثَمَّ يحكم على الناس غيابيّاً بالعذاب، ويحاسبهم ويصدر عليهم أحكاماً دون اعتراض منهم، أو تبرير لأعمالهم، أو ترك مجالٍ للدِّفاع عن أنفسهم.

الحقيقة الثانية:

أبو سفيان حكم له رسول الإسلام صلَّى الله عليه وسلَّم أن بيته بيتٌ آمِنٌ: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمِنٌ».

فهذه مَفخرةٌ وشهادةٌ ووسامٌ لأبي سفيان إلى يوم الدين، وقد تمَّ تكريمه بين أهله وقومه، ولم تكن هذه إلا لأبي سفيان، والآمر بذلك هو رسول الله، صلَّى الله عليه وسلَّم.

قال عَلِيٌّ كرَّم الله وجهه، ورضي الله عنه: "حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ"؟!

مَن منَّا يجرؤ على مخالفة هذا القول الفصل؟! أتدخل نفسك في متاهة قذف الآخرين بدون علمٍ أو يقينٍ؟! فبذلك نحكم على كلِّ الصحابة الآخرين جُزافاً، ونحن نعلم أنَّهم قومٌ كانوا كافرين، أنقذهم الله وهداهم للدين.

إذَن ماذا نقول بحقِّ خالد بن الوليد، سيف الله المسلول، رضي الله عنه، وقد قتل من المسلمين، وأثخن في جراحهم في أُحدٍ وغيرها؟! ففي الحديث الصحيح: «أنَّ الإسلامَ يجُبُّ ما قبلَهُ».

الحقيقة الثالثة:

من خلال استعراض سيرة أبي سفيان، وصلت إلى نتيجة أنه من المبشَّرين بالجنَّة، بمشيئة الله، ولا نزكِّي على الله أحداً؛ فقد فُقِئَت عين أبي سفيان بن حربٍ في حصار الطائف:

ذكر ابن سعدٍ أن النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال له وهي في يده – أي عينُ أبي سفيان في يده، يحملها إلى رسول الله... تصوَّر هذا المنظر، ومن يفعل هذا سوى أبي سفيان؟! فقال له الرسول –: «أيُّهما أحَبُّ إليك، عينٌ في الجنَّة، أو أدعو الله أن يردَّها عليك»؟ قال: عينٌ في الجنَّة. ورمى بها.

وبعد حينٍ، بعد وفاته صلَّى الله عليه وسلَّم، شهد أبو سفيان معركة اليرموك فقاتل، وفُقِئَت عينه الأخرى يومئذٍ. ذكره الحافظ زين الدين العراقيُّ.

أين أنت من هذا الصحابيّ الجليل، رضي الله عنه، الذي قدَّم حَبيبتَيهِ، ورمى بهما في سبيل الله؟! أحدهما على حصن الطائف، في حضرة الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم، والأخرى في فتح بلاد الشام، في معركة اليرموك، ويعود إلى مكَّة مع زوجه هندٍ رضي الله عنهما ضريراً!

ماذا قدمت أنت سوى الاتِّهامِ؟! وغداً تقدم على الله، فيسائلك عن ذلك.

أمَّا البشارة التي تأكَّدت لأبي سفيان ولغيره من المؤمنين إلى يوم الدين، فقد قَالَ النَّبِيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: «يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ أَذْهَبْتُ حَبِيبَتَيْهِ – أي عينَيه – فَصَبَرَ وَاحْتَسَبَ؛ لَمْ أَرْضَ لَهُ ثَوَاباً دُونَ الْجَنَّةِ».

وقال صلَّى الله عليه وسلَّم: «عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللهِ».

كم باتت عين أبي سفيان تحرس في سبيل الله، وأنت أيُّها الجبانُ تنام، حتى تأتي في آخر الزمان تستهزئ بأبي سفيان؟! خسئت!

أبا سفيان، يا إنساناً عاش بقيَّة عمره ضريراً من أجل نشر الإسلام...

وأنت الآن تتنعَّم في ديارٍ ضحَّى من أجلها أبو سفيان بدمه وعرقه وماله وولده، من أجل أن تعيش حياةً مترفةً في هذه الديار...

أما سمعت ما دار من حوارٍ بين هرقل وأبي سفيان؟!

قال هرقل العظيم: "فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقّاً – يا أبا سفيان – فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ". وقد كان.

والحقيقة الرابعة التي تؤكِّد البشارة:

قال صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «مَا اغْبَرَّتْ قَدَمَا عَبْدٍ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَمَسَّهُ النَّارُ».

ما زالت قدم أبي سفيان محفورة الأثر، مرسومةً وموسومةً على ثرى اليرموك، تستنجد بها أرض فلسطين والقدس الشريف... فأين نحن كلُّنا من أبي سفيان؟!

وبذلك طويت صفحةٌ من النور، وأودعت عند ربٍّ غفورٍ، ولا نقول إلا ما يرضي الله: {إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} [البقرة: 156].

{ذَاتِ الشَّوْكَةِ}[1]

كلُّ حدثٍ ذو قيمةٍ وأثرٍ باقٍ، يسجِّله القرآن ليبقى في الذاكرة؛ لأنه هو البداية، فغزوة بدرٍ الكبرى أوَّل تماسٍ غير مدبَّرٍ ولا مخطَّطٍ له من الرسول وصحبه مع مشركي مكة، إلا أن هجرة المهاجرين إلى المدينة المنوَّرة، وترك بيوتهم وأموالهم، وحتى نسائهم؛ ترك أثراً في نفوسهم، فخرجوا لا يملكون شيئاً من حطام الدنيا ومتاعها، فنتج عنه المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار في مجتمعٍ متكاتفٍ ومتراصٍّ، ووحدةٍ واحدةٍ، لا خلل بين فئاته، وهذا فضلٌ من الله عليهم.

فالمدينة المنوَّرة أصلاً موقعها على طرق القوافل الذاهبة والآتية من بلاد الشام، سواءٌ قبل الرسالة أو بعدها، فهذه فرصةٌ سانحةٌ للنَّيل من المعتدين الذين أحاطوا بأموال المسلمين المهاجرين في مكَّة، وأخذوها أو منعوا نقلها مع أصحابها.

[1] [الأنفال: 7].

وكان أوَّل مواجهةٍ في السنة الثانية للهجرة، هي قدوم قافلة أبي سفيان، محمَّلةً بالأرزاق والمتاع والمؤن، فخرجت فئةٌ قليلةٌ بحدود ثلاث مئةٍ وأربعةَ عشرَ رجلاً لملاقاة القافلة، وتحويلها باتجاه المدينة المنوَّرة مع حمَلَتها.

قائد القافلة من دُهاة العرب، أبو سفيان، عندما عرف بأخبار المسلمين ورصدهم حاول تجنيب القافلة الخسارة، فبدَلَ المرور بالقرب من المدينة المنوَّرة، بادر وغيَّر مسار القافلة باتِّجاه ساحل البحر الأحمر، مبتعداً عن المدينة، وبذلك نجا بالقافلة وما حملت.

إذَن هذا هو البعد والهدف الاستراتيجيُّ من وراء خروج الصحابة لاعتراض القافلة.

وهذه نظرة الإنسان؛ أن ينال ويعوِّض ما فاته من أمواله ومكتسباته التي فوَّتها عليهم المشركون في هجرتهم إلى المدينة، وهي نظرةٌ لا حرج فيها ولا مؤاخذة عليهم فيها؛ فقد فاتت القافلة على المسلمين، ولا ننكر أن هذا كان له أثرٌ في نفوس الصحابة بوصفهم بشراً.

الآن تتدخَّل الإرادة الإلهيَّة: {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ} [الأنفال: 7].

الخيار والاختيار من الله كان لمصلحة المسلمين، فتجد أن إرادة الله ساقت المشركين إلى حتفهم في بدرٍ، عند عودة القافلة سليمةً لم ينلها أذىً، طبعاً المشركون أخذتهم العزَّة بالإثم، وقال أبو جهلٍ: "والله لا نرجعُ حتى نبلُغَ بدراً، فنُقيمَ فيه ثَلاثاً، نَنْحَرُ الجَزورَ، ونُطْعِمُ الطعامَ، ونسقِي الْخَمْرَ، وتسمعُ بنا العَرَبُ، فلا يَزالون يهابونَنَا أبداً".

أمَّا الشيطان فقد ورد ذكره في القرآن في هذه الغزوة بالذات: {وإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الأنفال: 48].

هذه الخطط كلُّها أفشلها ربُّ العالمين، ولهذا اقرأ قول الحقّ سبحانه وتعالى: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (9) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}، إلى آخر الآيات التي جاءت في وصف الغزوة والنصر من سورة الأنفال.

نتيجة الغزوة هزيمة المشركين هزيمةً منكَرةً، ومقتل قادتهم، وسبعين رجلاً منهم، وأسر مثلهم آخرين، وغنائم لا تحصى ولا تعدُّ، وبهذا تحقَّق للمسلمين ما كان في أنفسهم، وذهاب هيبة المشركين، وكسر شوكتهم،

ورفع هيبة المسلمين، وقد سيقت أحداث هذه الغزوة بإيجازٍ ومختصرةً؛ للوقوف على تاريخ هذه الأمَّة كما سجِّلت في القرآن الكريم، والحمد لله ربّ العالمين.

عن دار بسمة للنشر الإلكتروني

دار مغربية، رقمية، تأسست في 2017

دار بسمة للنشر الإلكتروني. من أهدافها مساعدة الشباب المغاربة والعرب على نشر إبداعاتهم، وإيصال أصواتهم وتغريداتهم إلى العالم كله، كما تطمح لاكتساح عالم النشر الإلكتروني في كل الأقطار العربية..

كما أننا -في محاولة منّا لتغذية شريان الثقافة- نسترشد بالضمير الحي من أجل نشر المحتوى الثمين، حاملين على كواهلنا رسالة التنوير الحقيقي، ومدركين كل الإدراك لقيمة القلم النبيلة، لذلك كنا حريصين على نشر كل ما هو قيّم. في دار بسمة للنشر الإلكتروني نساند المؤلفين وندعمهم لإيصال إبداعاتهم لملايينَ من القراء، ونرشدهم إلى آليات فنية تعينهم على تحسين أساليب الكتابة والإبداع. وتقريبا لهذه الغاية تقوم الدار بتنظيم مسابقات متعدّدة، والإشراف عليها مجانا من أجل اكتشاف المواهب الشابة التي تستحق أن تُنشرَ أعمالُها بينَ القرأة والمثقفين، وذلك تشجيعا لهم على الاستمرارية في الكتابة الإبداع.

المحتويات

الإهداء 6

المقدِّمة 8

افتتاحيَّةٌ في حياة أبي سفيان..... 11

بطاقة تعريفٍ بأبي سفيان..... 13

أبو سفيان في رحلةٍ تجاريَّةٍ في بلاد الشام ومناظرته مع هرقل ... 16

حقائق عن أبي سفيان..... 55

بشرى لأبي سفيان رضي الله عنه وأرضاه 60

{ذَاتِ الشَّوْكَةِ}..... 66

المحتويات 73

أحمد محمد النزال الشديفات

دكتور في الشريعة الاسلامية، قاض وأديب
وكاتب وقصصي وخطيب ومصلح اجتماعي.
٠٠٩٦٢ ٠٧٧٢٤٨٠٤٩٠

قافلة أبي سفيان....والملتقى بدر

إصدارات الكاتب في دار بسمة للنشر الإلكتروني:

1. أدب الكهف.
2. أدب وصف أم معبد للرسول صلى الله عليه وسلم (كأنك تراه).
3. مؤتة: ابتدأت بالشهداء وانتهت بتخريج العلماء

دار البسمة للنشر الإلكتروني

+212 771 814 934
basma24design@gmail.com
darbassma
www.darbassma.com